Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 364

العلوم الإنسانية العدد 14 . صيف 2007

محاكاة واقعية ماركيز السحرية في ثلاث روايات عربية (رحلة غاندي الصغير ، سيد العتمة ، مواء)

د. فاطمة بدر *

الملخص

«الخيال يُهيئه الواقع؛ ليصبح فنا» ماركيز

أصبحت الواقعية السحرية إنموذجاً شائعاً لدى الكثير من الكتّاب ، لاسيما الكتّاب العرب ، فقد استمد هؤلاء الكتّاب رؤاهم من روايات أمريكا اللاتينية ، التي انمازت بفضاءات سحرية عجيبة وأجواء خيالية خرافية غربية ، إذ يرسم الكاتب قصته في غاية البساطة متخذاً تفاصيل الحياة مادته، ثم يدعمها بكل ما هو غريب ومستحيل ، وهو بهذا لايستنسخ الواقع إنما يخلق واقعاً خاصاً به ، يقوم على مبدأ التوليف بين المتضادات ، لذا نجد الفوضى مع النظام ، والاستقرار مع الاضطراب ، والأمل مع البؤس ، والنفس الممزقة والمعذبة مع صفاء الروح وخلودها ، والمطلق مع النسبي ، والخلود مع الفناء، فضلاً عن التأكيد على الالتباس ، وأثيرية الزمن ، والقلق الميتافيزيقي ، والإحساس باللايقين وانعدام المعايير الثابتة للقيم ، عالم مليّ بالمناقضات ، يريد الكاتب من خلاله البرهنة على فرضية معينة، وهو بهذا لايرسم سحرية للإمتاع فقط ، إنما يريد الإيحاء بفكرة فلسفية ، أو مجموعة أفكار منها العالم الذي نراه مألوفاً » [1] .

* باحثة في كلية الرافدين ، الجامعة - بغداد.

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 366

لقد أصبحت هذه الموضوعات أثيرة لدى الكتاب ، كما أن لغة القص وأدواتها تحولت هي الأخرى نحو الفنطازية ، إذ اعتمدت هذه الروايات على مدونة لغوية ذات شحنات شعرية وصفية إيحائية لا حد لها ؛ تعمل على توصيف الشيء المحكي بلغة يسودها التساؤل في أغلب الأحيان ؛ وعدم الاكتراث بالترابط الداخلي بين الجمل وهذا يؤدي إلى ارتباك في السياق ، فضلاً عن تكرار عبارات معينة مؤكدة ألفاظاً ألفاظ غريبة وأحياناً مبتذلة تترجم سلوك تلك الشخصيات ، والاستعانة بذاكرة حسية شمية لصياغة نمط خاص بها ؛ أما تكرارية المشهد الموصوف أو ما يطلق عليه بـ(البناء الهارموني - السيمفوني) الذي يفيد التأكيد والترسيخ والثبات في الزمن ، فإن حركة الزمن فيها تظهر في صورة حركة دائرية مغلقة على ذاتها يتم تكسير زمن الواقعة محدثاً في ذلك دلالة تغيب الزمن وتبعثره وأحياناً تلاشيه (محو الحدود الفاصلة بين الأزمنة) وهذا ما يجعلنا نحس أننا إزاء زمن واحد مطلق ؛ ويعد الموت في روايات بحثنا (اللحن الدوار السيمفوني) الذي يتردد في كل فصل من فصول الرواية وهذا يعني توقف جريان الزمن وينتج من هذا فقدان تدرج الحدث ، ومن ثَمَّ فقدان التشويق ، وسيادة طابع الملل ، كما أن تدمير الزمن يؤدي إلى انفجار زمن القصة المتخيلة كما يقول ريكاردو [٤] .

وأخيراً (نفي الإيهام) وهذا يعني عطب الذاكرة والالتباس والتصدع ، وعدم اليقين ؛ إذ يشعرنا الراوي بأنه يعرف، ثم ما يلبث أن يعلن أنه لا يعرف ، إن التأكيد على هذه المسألة نجدها في مواضع كثيرة من روايات بحثنا ، ويطلق على هذا النفي بـ (الإيهام باليقين) [٥] ويعمل هذا على : «التشكيك في قدرة الكلام ، أو في قدرة المتخيل الحكائي على أن يكون حقيقياً بذاته ، أو بعلاقته مع الواقعي ، أو مع معنى واحد يسمى هو في حكايته سوى وجه قابل للتعدد وتعدد المرايا والرواة » [٦] .

يجب التنويه أولاً إلى أن رواية (خريف البطريرك) حازت على جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٨٢ ، وقد طبعت أكثر من ست طبعات ، اعتمدت في تركيب أحداثها

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 367

تعمل عملية تقطيع الأحداث بالانتقال من مشهد واقعي إلى مشهد متخيل فنطازي، على تأجيل الحدث الفوق الطبيعي، وتعايش المشهدين المتنافرين المتضادين المتلاحمين جنباً إلى جنب لتبدو الرواية أكثر إدهاشاً وبراعة سواء في موضوعتها أو في صياغتها السردية ، وتعمل هذه العملية أيضاً على رد فعل القارئ وشده إلى الأحداث ، فضلاً عن خلق جمالية في السرد من خلال التنويع في الصور والإيحاء والحركة ؛ وهذه الإشارات تجرنا إلى القول برواية تبغي (هدم الحكاية)، لأن السرد فيها يضم مجموعة من الحكايات المتقطعة؛ إذ لايثبت النص على حالة إنما يتكسر المحكي بتلامح من استرجاع واستباق؛ تجنباً لخطيه تنامي الحدث، والغاء التنامي الزمني والمنطقي المعتاد في الرواية التقليدية ، وبذلك جاوزت هذه الرواية الحبكة التقليدية ، وتميزت بخصائص تجريبية على مستوى السرد؛ لأن سمة هذه الروايات تنصب على تهشيم العلاقات بكسر منطق التماسك واستبداله بمنطق التفكيك والتهشيم والتشتيت ؛ فضلاً عن ذوبان الحدود الفاصلة بين الضمائر ، وانتقال الراوي من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم وبالعكس ؛ وتعمل هذه الخلخلة على تعليق ذهن المتلقي وشغله ؛ إذ يتبدل أفق توقع القارئ بين الحين والآخر لبناء أفق جديد يكتمل المعنى ؛ كما أن التنقلات بين ضميري الغيبة والمتكلم يخضع للاحتياجات الدلالية، ولشد القارئ إلى ساحة إنتاج المعنى ، وهذا يؤدي أيضاً إلى «دفع المتلقي إلى حركة إيحائية توازي حركة المبدع » [٢] .

وقد عدّ جينيت أقوى أنواع الخرق هو «الخرق المتجسد في تبديل ضمير الشخص النحوي للدلالة على الشخصية نفسها » [٣] .

إن تبادل الضمائر ليست عملية تقنع فحسب ، إنما هو انعطافة أسلوبية تمنح النص تدفقاً دلالياً لاسيما عند تبادل الملفوظ على صعيد المرجع ، أي الانتقال من مرجع إلى آخر ، وهذا ما يضفي إلى النص جمالية شكلية ؛ كما أن تهجين الملفوظ يولد ظهور أصوات في مستوى يوازي صوت الراوي يجعلنا نجهل لمن القول هل هو للمؤلف ، أو للراوي أو للشخصية ؟

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 368

يمكن أن نحصي النقاط التي توصل إليها البحث؛ للكشف عن كيفية امتصاص رواية (خريف البطريرك) وإعادة خلقها في هذه النصوص الثلاثة :

١ - تحاكي الروايات الثلاث النمط الماركيزي كما أشرنا ، إذ تستنتج الروايات على وفق مبدأ الميتات الزائفة ، وتعدّ هذه اللازمة المتكررة سيمفونية ، أو لحناً هارمونياً يتردد في كل فصل في كل روايات بحثنا ، ثم نكتشف وعلى لسان الرواة أنه حيّ .

في رواية خريف البطريرك يقول : «كان ذلك بالضبط بعد ميتته الزائفة» [٩] ويقول : « صار موته شبيهاً بميتات أخرى ماضية» [١٠] .

وفي سيد العتمة تتكرر ميتة البيك الغريبة والخادعة ؛ إذ يظهر البيك ، وأحياناً يختفي يقول : « كانت تلك الميتات المعلن عنها في أضخم المناسبات والأعراس خدعة هائلة لتجريده من المؤيدين وجعلهم أعداء له » [١١] .

ويقول : « إن المفتاح الوحيد لقلعة الميتات الغريبة كان قد ظهر ليلة موت أمه» [١٢].

وفي رحلة غاندي الصغير تروي إليس عن غاندي الصغير وموته ، وتستعيد في كل فصل من فصول الرواية هذا الحدث تقول : «كلهم ماتوا لا أعرف إذ كانت نجاة ماتت .. حتى موت عبد الكريم ، الذي يفتح الحكاية كلها ، ليس مؤكداً أنالم أره يموت في الحقيقة لم أكن حين مات » [١٣] .

أما رواية (مواء) فيعد مقتل أولاد الراوي لحناً رئيساً يتردد في كل فصل، يقول الراوي : «كنا ستة في منزلي ، وأنا أعتقد بذلك ، وأمسينا خمسة ، وأنا أعتقد بذلك، وغدونا أربعة، وأنا أعتقد بذلك ، وما فارقتني مثلكم ذلك الاعتقاد حتى ونحن ننتهي ثلاثة .. مريم العني الشيطان، وعودي معي .. إنه أمر الله، اخرس» [١٤] .

٢ - نجد الالتباس في جميع الروايات ؛ إذ تسود رؤى البطل بالتهويمات الذهنية والتخيلات المشوشة لاختلاط الحلم بالحقيقة ، فنجد في رواية (خريف البطريرك) هذا الالتباس يقول : «كم شعر بنفسه مهاناً عندما اكتشف أمامه صورته تماماً

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 369

على مبدأ التوليف كما أشرنا سابقاً ؛ وثانياً صدرت رواية (رحلة غاندي الصغير) للياس خوري عام ١٩٨٩ ، وقد تحدثت عن اجتياح إسرائيل لبيروت عام ١٩٨٢ .

وثالثاً : حازت رواية (سيد العتمة) لربيع جابر على جائزة الناقد لعام ١٩٩٢التي تحكي عن قرية لبنانية إبان الاحتلال التركي ، أما رواية (مواء) لطه حامد شبيب فقد كتبها عام ٢٠٠١ هي الأخرى تحكي عن الموت .

ثمة تساؤل يجول في خاطري لماذا يقلد الكتاب (ماركيز) أهي الرغبة في التقليد؟ أم قصور في التخييل ؟ أم هناك قوة خفية سحرية تؤثر في هؤلاء الكتّاب ؟ لأنهم عدّوا (ماركيز) إنموذجاً للثقافة فعمدوا إلى محاكاته ؛ لأنّه خلق أدباً عميقاً وجميلاً استطاع من خلال رواياته أن يعري الواقع وما فيه من قبح وتفاهة وبشاعة ، وأنانية، وحروب ، وقتل ، ودمار ، وخراب ، وقمع ، واستهتار بحقوق البشر ، واضطهاد الحرية.

كل هذه المسائل الآنفة الذكر من الممكن أن تكون هي الدافع الذي وجهت الكتّاب إلى مثل هذه الكتابة ؛ فضلاً عن تأثر ماركيز بسحر الشرق لاسيما حكايات ألف ليلة وليلة ، وعمل هذا على تفجير طاقاته الخيالية عن هذا السحر ، وهذا يعني أن السحر كان عندنا ولم نره؛ لأننا لا نرى بعيوننا، إنما نرى بعيون الآخرين.

إن تذويب أجزاء من خطاب ماركيز (خريف البطريرك) داخل خطاب هذه الروايات يتم بوعي وقصدية من الكتّاب ، لقد قام هؤلاء الكتّاب بمحو حدود النص القديم مضيفاً إلى خطاب الآخر نغمته وتعبيره ، وأسلوبه الخاص ، لذا نجد أنفسنا أمام أعمال تتماثل فيما بينها في الإطار والنسق والعلاقات ؛ ويطلق على هذا النوع من المحاكاة أو التناص بـ (التناص الظاهر غير المتستر) [٧] ، وإن كان غير مصرح به ، إلا أنّه يتم بوعي وقصدية من الكاتب مشعراً القارئ بأنه إزاء نص تم إنتاجه من تذويب النص الآخر ، ومحوه وإعادة خلقه بالكامل ، بحيث لايعود أكثر من ذكرى بعيدة أو مصدر إلهام لنص من مصادر أخرى [٨] .

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 370

ويقول : « سيد العتمة يجوب جبال الليل؛ كي ينتقم لنا » [٢٣] .

ووردت عبارات مثلاً في خريف البطريرك يقول : « الساعة الثامنة أقول لك إنه أمر من الرب» [٢٤] يقابلها في رواية (مواء) « مريم العني الشيـــــطان الأمر أمر الله» [٢٥] .

٧ - يحس البطريرك بنفسه تحت رحمة قدر لا مفر منه في بيت موحش ، وبيت سيد العتمة فـ « رائحته مقيتة هي رائحة العنكبوت لدى هجراننا بيوتنا» [٢٦]، أما بيت رواية (مواء) فلن يوهل بيت البطل أبداً .

٨ - يمشي بطل رواية (خريف البطريرك) وينطنط مثل حيوان طوال نهاره يقول: « الآن انظر كيف انطنط طوال النهار ، كنت كسيحاً ، يا أبت كان عندي حيوان حي في بطني» [٢٧] .

على حين يتحول بطل رواية (مواء) في أغلب الأحيان إلى قطة ويتقمص دورها وتذوب شخصيته الحقيقية ، ويبدأ يعيش ويفكر ويتصرف على أنه قطة يقول : «دفعت الأرض بقوائمي الأربعة فنططت وحططت ثم بدفعة أخرى للأرض قذفتني قوائمي موبرة الفروة إلى فتحة السلم» [٢٨] .

ويقول : « كان عليّ أن أنط نطتين لأكون في أعلى السلم » [٢٩] .

٩ - تعلق البطريرك بـ(باتر يسيسو أراغونيس) يقول : «أخذ يرغمه على مشاركته في الطعام ، وكان يناوله ليشرب من عسله في ملعقته الخاصة فكانا يجتازان الغرف المنسية مثل هاربين ويمشيان على السجادات حتى لايسمع أحد خطواتهما الضخمة الخفية» [٣٠] ، ونجد تعلق بطل رواية (مواء) بقطته حتى بات يرضع من صدرها [٣١].

١٠ - علاقة البطريرك بأمه في رواية (خريف البطريرك) تشبه علاقة الحاكم بزوجته في رواية (سيد العتمة) .

١١ - يطلق البطريرك في رواية (خريف البطريرك) على ديك (ديونيز يواغواران) الأرجواني بالفحل بعد مصارعته مع أشرس ديوك المنطقة .

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 371

ونظيره في كل شيء ، سحقاً هذا الرجل هو أنا ، قال، وفي الواقع كان الشبه إلى حد الالتباس » [١٥] .

ونجد في رواية (رحلة غاندي الصغير) مصائر شخصيات مشوشة وضبابية عائمة، يصورها لنا الراوي المراقب .

يقول : «أرى صورهم، وهم يتلاشون كالماء .. الماء لا يتلاشى ، الماء يأخذك ويمضي» [١٦] .

ويقول : « رأت الناس بلا وجوه ، صار الناس بلا وجوه » [١٧] .

ويقول : «أرى أمامي صورهم، وهي تتلاشى خلف عيونهم ، عيـــــون تتلاشى وماء» [١٨].

وفي سيد العتمة نجد الالتباس في قوله : « فأعدنا في الالتباس كلامنا حلقة سماعنا » [١٩] .

ويقول : « توهمنا أنه عاد بصورة مفرطة في الخيال » [٢٠] .

وفي رواية (مواء) نجد التوهم والالتباس حتى في الوقت ، يقول : «الآن متى الآن؟ لا يهم» [٢١] .

٣ - نجد مانويلا سانسيز هي سبب ضياع البطريرك في رواية _(خريف البطريرك) ومريم سبب ضياع بطل رواية (مواء) .

٤ - تتماثل أغلب الصور الجنسية والألفاظ المبتذلة في هذه الروايات .

٥ - تحتفل رواية (خريف البطريرك) بحدث سماوي كان ينتظره البطريرك على شرفة بيت (مانويلا سانشيز) ، أما في (رواية مواء) فنجد السديم الذي يلف البطل ويغمره هو الحدث الفنطازي .

٦ - وردت تسميات متماثلة في هذه الروايات مثلاً نجد سيد المكان في خريف البطريرك يقابله سيد العتمة في رواية (سيد العتمة) .

يقول: «أما سيد المكان فلم يكن يشارك هذا العيد الشعبي الحزين» [٢٢].

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 372

القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٣ .
٨- قراءات في الأدب والنقد ، د. شجاع العاني ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٩ .
٩- خريف البطريرك ، غابرييل غارسيا ماركيز ، ت محمد علي اليوسفي ، ٦٠ ، دار الكلمة للنشر ، ط٦ ، ١٩٨٨ .
١٠- المصدر نفسه : ٣٣ .
١١- سيد العتمة ، ربيع جابر ، ١٠ ، دار رياض الريس للنشر ، لندن قبرص ، ١٩٩٢ .
١٢- المصدر نفسه : ٢٤ .
١٣- رحلة غاندي الصغير ، إلياس خوري ، ٧ ، دار الآداب ، بيروت .
١٤- مواء ، طه حامد شبيب ، بغداد ٢٠٠٠ .
١٥- خريف البطريرك ، ١٧ .
١٦- رحلة غاندي الصغير : ٧ .
١٧- المصدر نفسه : ٢٤ .
١٨- المصدر نفسه .
١٩- سيد العتمة : ٢٤ .
٢٠- المصدر نفسه : ١٠ .
٢١- مواء : ١٠٥ .
٢٢- خريف البطريرك : ١٤ .
٢٣- سيد العتمة : ٢٠ .
٢٤- خريف البطريرك : ٦٥ .
٢٥- مواء : ٦٤ .
٢٦- سيد العتمة : ٢٠ .
٢٧- خريف البطريرك : ١٢٧ .
٢٨- مواء : ٢٦ .
٢٩- المصدر نفسه : ٢٧ .
٣٠- خريف البطريرك : ٢٥ .
٣١- مواء : ١٧٠ .
٣٢- خريف البطريرك : ٨٢ .
٣٣- مواء : ١٧٥ .
٣٤- المصدر نفسه : ١٧٣ .

Human Sciences Arabic 14 new 4/17/12 9:51 AM Page 373

يقول : « كان الجنرال أول من تقدم عبر الحلبة لمصافحة يد المنتصر ، أنت فحل قال له مبتهجاً ، وشاكراً ، إذ إن أحدهم تمكن أخيراً من أن ينعم عليه بهزيمة لا أهمية لها ، أنا مستعد لدفع الكثير كي أحصل على هذا البطل الأرجواني» [٣٣] .

أما في رواية (مواء) فيطلق على الراوي بالفحل يقول : «لأن إجلالهم لمكانتي أعني مكانة فحولتي » [٣٣] .

ويقول : « فحولتي أمثولة تسكن طرف لسان فحل الصحراء» [٣٤] .

١٢ - يتصرف الجنرال في البيت الضخم تصرفاً ينم عن الرجولة ، في حين يتصرف تصرفاً مغايراً في المستنقع الكبير؛ إذ يتحين الفرص كي يختلي بإحدى الخلاسيات المطمئنات وهن يكنسن البيت المدني .

وفي (سيد العتمة) يتصرف البيك في البيت الكبير تصرفاً ينم عن الرجولة، ويتصرف في القبو تصرفاً ينم عن نتناته واغتصابه للمرأة .

وفي رواية (مواء) يتصرف البطل في بيته مع زوجته تصرفاً ينم عن الرجولة ، ويتصرف تحت السُّلم مع قطته تصرفاً ينم عن نتناته وعجزه .

الإحالات

١- دليل الناقد ، د. ميجان الرويلي ، د. سعد البازعي ، ٢٣١ ، المركز الثقافي العربي ، ط٢، ٢٠٠٠.

٢- قراءات أسلوبية في الشعر الحديث ، د. محمد عبد المطلب ، ١٤٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ط ، ١٩٩٥ .

٣- خطاب الحكاية ، جيرار جنيت ، ت : محمد معتصم ، وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي ، ٢٥٦ ، المجلس الأعلى للثقافة ، ط٢ ، ١٩٩٧ .

٤- ينظر : بين الأدب والموسيقى ، أسعد محمد علي ، ٢١٤ ، دار آفاق عربية للصحافة والنشر ، بغداد، ١٩٨٥ .

٥- فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب ، يمنى العيد ، ١٥٨ ، دار الآداب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ .

٦- المصدر نفسه : ١٥٨ .

٧- أدونيس منتحلاً ، دراسة في الاستحواذ الأدبي ، وارتجالية الترجمة ، كاظم جهاد ، مكتبة مدبولي،